لماذا تنجب الأمهات

يسرى الأيوبي

أطل الفجر البنفسجي من وراء زجاج النافذة حين رنّ منبه الساعة فهبّ من نومه القلق وارتدى ملابسه العسكرية على عجل وتزود بمسدسه وصدره يخفق بمشاعر غريبة عليه.. مزيج من الخوف وروعة المغامرة والأسى لفراق أمه وأهله وأصدقائه.

واندفع من غرفته كالسهم فسمع أنينا في الغرفة المجاورة، إنها والدته.. والدته الحبيبة مستغرقة في نومها.. لقد عانت آلاما قاسية عند المساء إثر نوبة في معدتها.. وتوقف لحظة يصغي وقد طفح قلبه لوعة.. لم يضيف لها ألما جديدا؟.. سيذهب دون وداعها.. وأسرع بنزول الدرجات بحذر الى الطابق السفلي ولكنه تردد لحظة.. ان الرغبة تتملكه في أن يتزود منها بنظرة عجلى قبل رحيله مع فرقته.. نظرة واحدة.. فمن يدري أي قدر ينتظره هناك في أرض المعركة؟.. غير أنه كبتها وواصل النزول وقد أحسّ بالدموع تكاد تخنقه.. ودخل غرفة أخيه الأكبر وهتف بصوت خفيض مضطرب وهو يدير الزر الكهربائي.

- "هل أنت مستيقظ؟"

- "نعم يا سالم.. أدخل..انني انتظرك."

وتعانق الأخوان، فأحس سالم بأن قواه خذلته، وما عاد في طوقه حبس الدموع المتمردة في صدره وهتف وهو يجهش بالبكاء.

- "قبل يدي أمي عني وخفف عنها."

وتأوه أخوه الأكبر وقال:

- "لست أدري كيف يكون موقف المسكينة إذ تفتقدك في الغد وتعلم بسفرك."

- "دعها تنام.. تمزّق قلبي وأنا أشاهدها تتلوّى في نوبتها هذا المساء..انني أعرف قدرتها على الإحتمال.. يالقلبها الشجاع العامر بالحب!"

- "ان أمنا من أبسل النساء."

- "انني حين أذكر كم قاست في تربيتنا لأتمالك من ذرف الدموع.. كيـف أتركها وهي على هذه الحال؟ هذا ما يقلقني ويبكيني ويشل قواي."

- "سأبذل لها كل عناية يا سالم."

- "أنت معيل، وراتبك لايكفي.. خذ هذا.. لقد وفرت قلـيلا، أنفقـه علـى راحتها وصحتها."

وناول أخاه تفويضا بسحب المبلغ الذي يخصه من المصرف، ثم عانقه مرة أخرى وهو يرجوه أن لايزعج نفسه بالقيام من فراشه، وأخذ يشهق ببكاء حاد وإذا بصوت حنون صارم في وهن يهتف في الباب:

- "سالم!"

والتفت الأخوان ليريا أمهما برداء نومها الذي يلف قامتها المديدة الممتلئـة تعبر الغرفة وهي تكاد تترنح وقد امتقع لونها الأبيض، وتدّلت خصلة من شـعرها الأسود الناعم على كتفها بينما عقص الباقي الى الخلف.. وارتسمت فـي عينيهـا الفاحمتين الكحيلتين نظرة عاتبة، وبان في شفتيها المستقيمتين تجالد وعزم. فأسرع سالم نحوها واحتضنها وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة عريـضة حلـوة، وراح يغمر بالقبل ويغسل بالدمع يديها ووجنتيها.

- "كيف أفقت يا أمي؟ حاذرت أن أنبهك."

وابتسمت في حنان وعتاب وهي تستريح على مقعد قريب.

- "حدثني قلبي بأنك راحل فأفقت وأسرعت الى غرفتك فلم أجدك.. أهكذا ترحـل يا سالم دون أن أراك؟ يالك من عاق!"

وسمع بوق سيارة في الخارج فتمتم سالم:

- "إنهم زملائي الضباط."

- "أخائف أنت يا سالم؟ أتذرف الدموع كالنساء؟ خير لـك اذن أن تنـزع ثيابك وتعود الى فراشك وتنام فيه ملء جفونك كالكسالى المترفين."

ولاذ سالم بالصمت وقد شعر بوجهه يلتهب وشفتيه ترتجفان رغم إرادتـه.. فهبّ أخوه للدفاع عنه:

- "انه يبكي فراقك!"

وقالت الأم بهدوء: "أعلم أن الحياة جميلة.."

فقال سالم على الفور :

"تكون كذلك يا أمي حين يتطهر نسيمنا من أنفاس الغرباء، وأرضـنا مـن وطء أقدامهم."

فأشرق وجهها المربع الطلق بنور الغبطة، وأِلقت عيناها بالحنـان، ومـدّت لابنها ذراعيها، وضمته الى صدرها وقد ذكرته حين كان طفلا يرضـع.. ألا مـا أقرب ذلك اليوم! وقبلته كما كانت تقبله حينذاك بفيض الأمومة القدسي..

- "انكم كل ثروتي في الحياة.. كل ما جنيته في سني الخمسين، ولكنني لن أوفركم لنفسي أنت وإخوتك.. لقد أعددتكم دائما لأم أكثر حنانـا وخلـودا منـي.. للحياة الكريمة الشريفة، فلماذا اذن تنجب الأمهات الرجال؟"

- "أنت رائعة يا أمي."

- "ان لك قلبا أكبر من هذا الفجر البنفسجي يا أمي.."

وقالت الأم وقد دمعت عيناها:

- "ما كان أجدر بأمهاتهم أن يمنعوهم عن مثل هذا العمل المشين فيخجلـوا من اغتصاب أرض قوم آمنين وتشريدهم."

- "العدو لايخجل يا أمي.. طفيلي وقح كالعوسج."

وعاد البوق الى إصدار زعيقه المستعجل.

- "أسرع يابني، مل رفاقك الإنتظار.. راسلني! لاتكن مهملا كإخوتك. أريد أن أشعر بأنني معكم في المعركة."

ولما ألقى سالم نظرة أخيرة الى عينيها وهو يغادر الغرفة خيل اليه أنه يرى فيهما معاني الإستشهاد.

وما كاد يغيب وتهدر السيارة في الخارج ثم يتلاشى صوتها حتـى ارتمـت على سرير ابنها الأكبر وهي تشرق بدمعها.

- "هذا أكثر مما أحتمل!.."

* * *

كان سالم في الخامسة والعشرين، أصغر أبنائها وأكثرهم شبها بها، وأحبهم اليها وأعطفهم عليها، وأقدرهم على مشاركتها أحاسيسها وأشواقها وأمانيها، وأوفرهم تقديرا لمزاياها وتضحياتها.

لقد انفض أبناؤها وبناتها من المنزل ليكوّن كل منهم أسرته الصغيرة، وبقي هو يفضل صحبتها على كل صحبة ولا يجد من الفتيات من تبلغ في جمالها وقوة روحها وذكائها وفهمها العميق للحياة ما تبلغه أمه فيتخذها زوجة له. لقد وضعت نصب عينيه نموذجا عصيا للمرأة فراح يبحث عن مثيلة لها دون جدوى.

اتخذ سالم وإخوته الثلاث الجيش مهنة لهم فأصبح منهم المقدم والرئيس والملازم، أما ابنها الأكبر فكان موظفا براتب متواضع في إحدى الدوائر الحكومية وله خمسة أطفال، وعاد ليسكن معها إثر وفاة زوجته. وكانت هي صاحبة الإقتراح لتوفر عليه أجر المنزل وتعتني بالصغار..

مرّوا جميعا بأيام عصيبة إثر مقتل الوالد على يد الفرنسيين في معركة ميسلون، فكانت تطرز وتخيط الثياب وتقوم وحدها بأعباء البيت وتساعد الأولاد في دروسهم ثم تسهر حتى منتصف الليل لتطالع الكتب الأدبية والشعرية.. ولقد أصيبت في صباها بقرحة في معدتها، فلم يمنعها الألم من الإستمرار في عملها الجبار حتى طال الزغب الذي يغطي أجساد فراخها الصغار، وغدوا قادرين على الطيران.. وما تكاد تراهم شبابا يفخر بهم قلبها الكبير حتى يدعو الجهاد أربعة منهم الى المعركة واحدا بعد الآخر.

قال لها الطبيب الذي شخّص حالتها التي عاودتها بعد أن ظنت بأنها شفيت تماما:

- "ان القلق النفسي يزيد حالتك سوءا."

فأجابت بتجالد:

- "أربعة شباب في أرض المعركة!.. انني أم ولـست قديـسة.. أعلـم أن ذهابهم حق وعلي أن أضحي أنا وكل الأمهات، ولكن هل أستطيع أن أمنع نفـسي من الألم؟ من أن يمزقني الألم؟"

كانت ليلة باردة عاصفة فوقفت في الشرفة ترتجف وتحس بلسع البرد فـي عظامها، وهتف بها ابنها الأكبر:

- "أدخلي من هذا الزمهرير.. بم تحدقين؟ انك تقتلين نفسك."

وتأوهت:

- "الأولاد!.. انهم هناك في العراء والمدافع تطلق رشاشها عليهم.."

راحت ترفو جوارب سالم، وتكوي له قمصانه وترتبها في الخزانة، وفجـأة أحست بانقباض ثقيل وسالت دموعها صامتة على وجنتيها. "أتراه سيعود ليلبسها؟"

هذه الصور، هذه الرسائل، عزاؤها، فرحتها الكبرى. تحدّق وتقرأ ولا تملّ من التحديق والقراءة.

سالم ورفاقه قرب دبابة غنموها من العدو، سالم في كوفية وعقـال جـالس على حجر يقرأ للجنود الخارطة ووراءهم مدفع ثقيل. سالم عند خيمتـه.. سـالم ورفاقه خلف الإستحكامات وقد سدّدوا بنادقهم.

عشرات من الصور في مختلف الأماكن.. تبعت سالم في كل خطوة خطاها، وشاركته كل معركة خاضها، وامتلأ قلبها فخارا. أما أبناؤها الآخـرون فكانـت تسمع أخبارهم من زوجاتهم فتطمئن وتقرّ عينها.

- "ألم تصل رسالة من سالم؟"

- "كلا يا أمي.."

- "ان قلبي يعصر كآبة وينذرني بشر.."

- "قلت لك يا أمي أن المواصلات عسيرة فلا تقلقي.."

- "عاد إخوته ولم يعد بعد!."

- "سلميه لله ياأمي."

- "ونعم بالله.. سندهن البيت لعودة سالم.. انـه يحـب اللـون الأخـضر، وسأشتري للصغار قماشا أخيطه لهم لعودة سالم.."

هتف الأخ الأكبر بالطبيب والدموع تخنقه:

- "الى متى نخفي عنها الأمر؟ إنها ذكية الفؤاد وتكاد تقرأ ما بنفوسنا مـن لوعة.."

- "خير لها أن تعلم بالتدريج.. تلاحقت عليها النوبات في المدة الأخيرة.."

- "انك لاتعرفها.. امرأة باسلة.. وإنني أخجل من نفسي حين أخدعها وأطيل أملها وعذابها.. فهي لن تغفر لنا التلاعب بعواطفها أبدا.. أوصى أخـي ضـابط الإستعلامات المسؤول في الأركان أن يقول لها أنه في قائمة المفقودين ولا يدري أحد عن مصيره شيئا، وزاد هذا الأمر في بلبلتها وعذابها.. أتراه وقـع أسـيرا؟ أتراهم يعذبونه؟ لو كان مات لكانت المصيبة أهون عليها من القلق القاتـل الـذي تعانيه."

وبرهنت تلك الأم حقا عن بسالتها حين تلقت النبأ الفاجع ومعه صرّة فيهـا عشرة آلاف ليرة، ثمن دماء ابنها الشهيد.. رمت بالمال جانبا وهي تغمغم:

- "ان دماء سالم أثمن من هذا. انه استشهد في سبيل مبدأ وتحرير أمة. ولا أطلب الاّ أن يسكب الله الصبر في قلبي على فقده." وألقت على المال نظرة أخرى وقالت:

- "لو كان مثواه هنا لبنيت فوقه قبرا لائقا أحجّ اليه."

ولم تلبث أن غمغمت لنفسها:

- "ليتني كنت قد زوّجته.."

ورفضت فيه كل عزاء.. ان سالم في خيالها حي، مسافر سـيعود. وهـي لاتزال تنفض الغبار عن ثيابه وتكويها له وترتبها في الخزانة، وسريره قائم فـي ركنه وعليه الأغطية البيضاء الناصعة.. وصورته الكبيرة معلقة على الجدار..

وسمعت يوما قصة استشهاده في المذياع وحولها هالة من البطولة فـسالت دموعها تغمر وجنتيها وهي تحدّث نفسها: "لماذا يشوّهون الحقائق فيصوّرونه كأحد

أبطال الأساطير؟ ان الأمر أبسط من ذلك، كان يحب الحياة ويقدسها، ولكنـه مـع ذلك، بذلها بسخاء ورضى ليهبها لغيره كريمة.. أفليس في هذا بطولة تفوق بكثير بطولة من لايشبه الناس، أو من يجد في الإستشهاد غايته؟"

وحاول إبنها الأكبر أن يعزيها فقال:

- "ان فوجا ودورة ودبابة تدعى باسم سالم. لقد سجّل اسـمه فـي سـجل الخالدين!"

فاستمرت في نحيبها ولم تجب.

ومستها الحاجة يوما الى المال لتعالج نفسها فاقترح عليها ابنها الأكبـر أن تنفق من الصرة، فنظرت اليه نظرة قاسية وأجابت بهدوء:

- "انه مال مقدس لايمس."

وأشاحت بوجهها تذرف الدموع. أخذت تفكر فيه ذات مساء، بشبابه الريان الذي ولّى وهي في فراشها تعض على اللحاف وتحتمل أوجاعها بصبر وصـمت، وتمنت لو أن الحياة لم تمهلها بعده.. لاإشراق في دنياهـا ولا جمـال.. فارقتهـا البهجة، وكثيرا ما كانت تمر بها لحظات تضحك فيها أو تبتسم لما يضحك أو يبسم له ولكنها لاتلبث أن تتحسس في أعماقها أشواك جرح يأبى أن يندمل.

وتنبهت حواسها فجأة إذ حمل اليها المذياع أصواتا مختلطة تنم عـن جمـع غفير. ورن صوت المذيع يعلن للمستمعين بدء افتتاح التبرع للجنة أسبوع التسلح.. وتسابق أفراد الشعب يبذلون بسخاء فأحسّت بصدرها يخفق وبنشوة الحماس تطغي على مشاعر ضعفها، وخيل اليها أن سالم يهتف بها أن تفعل شيئا، فقامـت مـن فراشها وارتدت ملابسها، ونادت ابنها الأكبر وطلبت اليه أن يذهب بها الى هناك..

- "تذهبين وأنت مريضة وفي هذا المساء البارد؟ دعيني أذهب عنك ان كان لديك ما تتبرعين به.."

- "ألا تسمع؟ انهم لم ينسوا شهداءهم.. أريد أن أراهم عن كثـب وألمـس قلوبهم.. كلهم أبنائي.. لقد أحبّهم سالم كثيرا جدا.. فما هو الوطن ان لم يكن الناس الذين فيه؟"

ورأى نفر من الجماهير الملتفة حول صندوق التبرع امرأة تكاد تهوي مـن الإعياء، والناس يتدافعونها وهي تتشبث بذراع شاب وتحاول الوصول بجهد كبير الى الصندوق فأفسحوا لهما.. أخذت تلهث حين بلغت هدفها، كان الألـم يحزّهـا وشفتاها زرقاوان ترتجفان، وقدماها لاتقويان على حملها، ولكن وجهها يبدو مـع ذلك مشرقا في جلال. انها تشعر بنشوة عارمة تفعم كيانها وكأنها فـي المحطـة تنتظر عودة سالم.

ورأت صديقا له، لم ينتبه اليها، واقفا على صندوق التبرع، فوضعت أمامه ما ضنّت به طويلا.. لقد وجدت أخيرا طريق هذا المال المقـدس.. بعـث دمـاء الشهيد لتستأنف النضال!.

* * *